المحاضرة الاولى

البلاد العربية في سنوات الحرب الاولى وما بعدها (١٩١٤-١٩١٨)

المرحلة: الرابعة

المادة: تاريخ البلاد العربية المعاصر

تدريسي المادة

أ.د احمد ماجد عبد الرزاق

الفصل الأوّل :

الأوضاع العامّة في البِلاد العربيّة في أثناء الحرب العالميّة الأولى وما بعدها (١٩١٤ ـ ١٩٢٠)

أولاً : البِلاد العربيّة في سنوات الحرب العالميّة الأولى وما بعدها (١٩١٤ ـ ١٩١٨) :

بعد أنْ أعلنت الدولة العُثمانيّة موقفها من تكتُلات الحرب العالميّة الأولى ، حسمت موقفها مع دول الوسط (ألمانيا ، والنمسا والمجر) ، فدخلت الحرب في الخامس من تشرين الأول ١٩١٤ ، ويبدو أنَّ هذا القرار لم يكن بعيداً عن تصوّرات الحُكومة البريطانيّة ، ولذلك اتخذت الإجراءات اللّازِمة لِحماية مصالحها في المنطقة والمرتبطة بمنطقتين هُما قناة السويس والخليج العربي ، إذ إنَّ الأولى تعدُّ ممراً مائياً مهماً ورئيساً لِحركة التجارة ومرور السفن ، والثانية احتوائها على آبار ومنابع نفط الّتي تُشرِف على عمليّات الكشف فيها شركة النفط الأنكلو فارسية [١] .

تصاعد القلق البريطاني على مصالحها في المنطقة بعد بدء العمليّات العسكريّة بثلاثة أشهر ، لذا قامت بالتشاور مع حُكومة الهند بخصوص إرسال حملة عسكريّة لحماية رأس الخليج العربي ، ومراكز إنتاج النفط ، ثُمَّ عزّزت موقع حاكم الكويت ومنحته الاعتراف بالاستقلال الذاتي في الثالث من تشرين الثاني ١٩١٤ ، ولكن في ظِل الحِماية البريطانيّة ، ثُمَّ التقدُّم باتجاه عبادان ومِنها البصرة [٢] ، ثُمَّ استكملت مشروع احتلال العراق حتّى عام ١٩١٨ ، إذ وصلت قوّاتها إلى الشرقاط جنوب مدينة الموصل (٧٠ كم) ، وقد شهد العراق ظروفاً ومُتغيّرات عسكريّة واقتصاديّة واجتماعيّة عديدة في ظِل سُلطة الاحتلال ، وتراجع وانسحاب الإدارة العُثمانيّة .

أمّا مصر فكانت أساساً تحت الإدارة البريطانيّة منذ احتلالها عام ١٨٨٢ ، وتحسباً لموقفها فيها ، أوعز قائد القوّات البريطانيّة بضَرورَة إرسال حملة عسكريّة إلى لِواء الإسكندرونة للحيلولة دون مُهاجمة العُثمانيين لمصر ، وأمّا الفرنسيون فقد وجدوا أنَّ الحرب العالميّة الأولى منذُ اللحظات الأولى بأنّها الفُرصة المُلائِمة لتحقيق حُلمها القديم ، وهو فرض السّيطرة على سوريا ، ومناطق بلاد الشام الأخرى ، ووجدت الحُكومة الفرنسيّة أنَّ الحكومة البريطانيّة تنظر بعين العطف إلى مصالها في المنطقة وأكّدَ ذلك السير أدورد غراي (Sir Edward Grey) وزير خارجيّة بريطانيا عن التسليم بالمطالب الفرنسيّة في المنطقة [٣] .

في أوائل عام ١٩١٥ ، ظهرت بوادر التنسيق بين السياستين البريطانيّة والفرنسيّة بالنسبة لمُستقبل المناطق العُثمانيّة ، لا سيّما أنّ روسيا بدأت تطالب بالقسطنطينيّة ، ومناطق مضيقي البسفور والدردنيل ، لذلك جاءت المطالب الفرنسيّة بإعلانها في ١٤ آذار ١٩١٥ بأنّها تريد ضم سوريا مع خليج الإسكندرونة وكلكيا حتى طرطوس إلى ممتلكاتها ، وأمّا بريطانيا فلم تظهر في البِداية سقف مطالبها ، بل أكّدت أنّهُ من الضّروري أنْ تكون مناطق الحجاز وشبه الجزيرة العربيّة (مناطق الأماكن المُقدّسة) تحت حُكم إقليم إسلامي مُستقل [٤] .

كانت إستراتيجيّة دول الوفاق الوذي وعلى رأسها بريطانيا تعمل على إضعاف الدولة العُثمانيّة بكل الوسائل والاتجاهات ولا سيّما التّشجيع على الانقِسامات الدّاخليّة ، وتحديداً القيام بالثورة ضِدّ العُثمانيين ولذلك بدأت الاقتراب من الشريف حسين [٥] ، وحثّه على الوقوف معهم مقابل التعهُّد له بمُستقبل مزدهر بقيام الدولة العربية الكُبرى [٦] ، فلوّحوا له بالخلافة ، مِمّا جعله يعتقد أنّ ذلك سيُساعِده على تكوين دولة عربيّة إسلاميّة واسعة تنضم تحت سُلطته البلاد العربيّة من الهلال الخصيب والجزيرة العربيّة ، ويتوّج ملكاً للعرب .

استغلّ البريطانيون علاقة الشريف حسين السيّئة بحكومة الاتحاديين الّذينَ عملوا ما بوسعهم من أجل الحد من نفوذهِ في الجزيرة العربيّة ، وهو بالمُقابل ناصبهم العداء ، ولكن في قرارة نفسه لا يستطيع مُجابهتهم لوحدهِ ما لم تكُن هُناكَ قوّة كبيرة داعِمة لهُ ، لذلك فأنّ فتح المُشاورات بين الشريف حسين وبريطانيا ، بدأت منذ عام ١٩١٢ ، ولكن بصورة غير مُعلنة ، إلّا أنّ حقيقة التوجُّهات بدأت من سلْسِلة المُراسلات بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون .

حاول الشريف حسين من جانبه معرفة موقف الزعامات العربيّة في المشرق العربي في حالة قيامهِ بتحرُّك ضِدّ الدولة العُثمانيّة ، فقد أرسل ولده الأمير فيصل إلى بلاد الشام لِمعرِفة مُستوى الاستعدادات في ذلك ، وقام الأمير فيصل بدوره بلقاء عدد من زعامات الجمعيّة العربيّة الفتاة وجمعيّة العهد السرّيتين ، وعرض عليهم الموقف ، وكانَ الرأي والموقف هو عقد العزم على انطلاق الثورة العربيّة ، على أنْ يكون مركزها الأساس الحجاز ، ثُمّ طرحوا على الأمير مشروع التفاوض بين والده الشريف حسين والبريطانيين ، عُرِفَ باسم (بروتوكول دمشق) ، ومضمونه أنْ تعترف بريطانيا باستقلال العرب ، وإلغاء كُل الامتيازات الأجنبيّة [٧] .

أ. مُراسلات حسين ـ مكماهون :

أجرى الشريف حسين بن علي سِلْسِلة من المُراسلات مع السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في القاهرة ، وكانَ استناد الشريف في مُراسلاتهِ تِلك على أساس ما وضع في ميثاق دمشق ، فكانت رِسالته الأولى في تموز ١٩١٥ وتضمّنت شروط العرب في الاتفاق مع بريطانيا وهي الآتية [٨] :

١. تعترف بريطانيا العُظمى باستقلال البلاد العربيّة بحدودها من الشمال (خط مرسين ـ أضنة حتّى خط ٣٧°) ، وشرقاً (حدود فارس إلى الخليج العربي) ، وجنوباً (المحيط الهندي) ، وغرباً (البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين) ، وموافقة بريطانيا على إعلان الخلافة العربيّة .
٢. تعترف حُكومة الشريف العربيّة بأفضليّة بريطانيا في جميع المشاريع الاقتصاديّة في البلاد العربيّة .
٣. يقوم الفريقان المُتعاقِدان بمُعاونة بعضهما البعض إلى أقصى حد لِمُجابهة أي قوّة أجنبيّة يُمكِن أنْ تُهاجِم أحد الفريقين ، ولا يعقد الصلح من دون مُوافقة الفريقين .
٤. يتشاور الفريقان إذا دخل أحدهُما في نِزاعٍ مُسلّح مع طرفٍ ثالث .
٥. تعترف حُكومة الشريف حسين في الدعوة لعقد مؤتمر دولي لتصديق ذلك التعهُّد .

فكانَ جواب مكماهون على رسالة الشريف حسين يكتنفه الغموض ، ولم يبح بما كانَ يدور في ذِهن بريطانيا ، وأشارَ إلى أنَّ مسائِل الحُدود لا يُمكِن بحثها في هذا الوقت في ظِل ظروف الحرب ، وردّ الشريف حسين برسالة أُخرى في ١٩ أيلول ١٩١٥ ، بيّن فيها دهشته لتهرُّب مكماهون من مسألة إجابته على الحُدود ، وذكر لهُ بأنَّ المطالب هي مطالب الشعب العربي لا اقتراح من أحد [٩] .

رفض الشريف حسين في مُذكّرته الثالثة المؤرَّخة في ٥ تشرين الثاني ١٩١٥ ، فصل أي جُزء من العراق ، ولكنه عرض على مكماهون الاعتراف بترك ولاية البصرة الّتي كانت تحت الاحتلال البريطاني لِمُدّة مُعيّنة ، على أنْ يدفع للدولة العربيّة المنشودة في مُدّة الاحتلال مقداراً مُناسباً من المال ، وردّ مكماهون برسالتهِ الرابعة المؤرخة في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٦ ، بأنَّ حكومة بلاده غير مستعدّة لعمل كُل ما من شأنه الإساءة إلى حليفتها فرنسا ، فقد أبدى الشريف حسين موافقته في رسالته الرابعة في كانون الثاني ١٩١٦ ، على أنْ يُعاد النظر بعد انتهاء العمليّات العسكريّة ، وفي المُذكّرة الأخيرة إلى مكماهون ؛ بيّن فيها التزام بريطانيا بعهودها إلى الشريف حسين ، وعلى هذا الأساس جاءَ إعلان الشريف حسين لثورتهِ في ١٠ حزيران ١٩١٦ [١٠] .

ب. الثورة العربيّة الكُبرى ١٩١٦ :

في يوم السبت الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦ ، أعلنَ الشريف حسين الثورة من مكة وانطلاق المواجهة مع العُثمانيين ، هدفها الاستقلال ، وحكم العرب بأنفسهم ، وأعلن فور انطلاق العمليّات بياناً جاءَ فيه :

" أنَّ الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوي بين الشعبين ، رغم الجهود الصادقة التي بذلها العرب في ظِل الخِلافة ، وخرجوا على الشريعة ، فبدّلوا الأحكام ، وشنقوا الأحرار العرب جماعات وفُرادى ، وشرّدوا أُسرهم ونفوها من أرضها وصادروا الأموال ، وقد نصحنا ولم ينفع النصح ، وقد وفّقنا الله لأخذ الاستقلال ، فضربنا على أيدي الاتحاديين ، وانفصلت بلادنا عن السُلطة العُثمانيّة انفصالاً تامّاً ، وأعلنّا استقلالاً لا تشوبه شائِبة مداخله أجنبيّة ولا تحكُّم خارجي ، جاعلين الغاية نصر دين الإسلام ، وإعلاء شأن المُسلمين ، مُستندين في كُل أعمالنا على الأحكام وأُصول القضاء " [١١] .

وهكذا بدأت العمليّات العسكريّة لقوّات الشريف حسين ضِدَّ القوّات العُثمانيّة ، واستمرّت تلك العمليّات قُرابة العامين ، اكتسحت القوّات العربيّة قوّات الأتراك العُثمانيين وبِمُساندة بريطانيا مُعظم مواقع الجيش العُثماني في الحجاز ، وأسهمت إلى حدٍ كبير في تحرير بلاد الشام والدخول إلى دمشق [١٢] .

وفي تشرين الأوّل عام ١٩١٦ ، تألفت أوّل وِزارة عربيّة برئاسة الشيخ عبد الله السرّاج وفي اليوم التالي بُويع الحسين ملكاً على العرب ، وبعد مُفاوضاتٍ ومُراسلات مع دول الوفاق الّتي استغرقت أكثر من شهرين ، اعترفوا بالشريف حسين ملكاً على الحجاز في ٣ كانون الثاني ١٩١٧ [١٣] ثُمَّ واصلت نجاحات القوّات العربيّة في تحقيق الانتصارات المُتلاحِقة بقيادة الأمير فيصل بن الحسين الّذي قادَ العمليّات في بلاد الشام ، ودخلت قوّاته دمشق ، ثُمَّ واصلت قوّاته تُحرِّر مُدن الشام الأُخرى حمص وحماة وحلب ، كما دخلت قوّات أُخرى بيروت ، ورُفِعَ علم الثورة العربيّة الكُبرى فيها على دار الحُكومة [١٤] .

وعلى الرغم من جسامة التضحيات الّتي قدّمتها القوّات العربيّة بقيادة الشريف حسين والانتصارات الّتي حققتها في ميادين القتال ، إلّا أنَّ دول الوفاق كانوا يضمرون في أروقتهم المرّة ما لا يُحمد عُقباه تِجاه الشريف حسين والعرب ، فكانت مؤامرة اتفاقيّة سايكس - بيكو .

ج. اتفاقيّة سايكس – بيكو ١٩١٦ :

استغلّت الدول الأوربيّة ضعف الدولة العثمانيّة وتراجعها الّتي كانت تُعرف باسم دولة الرجل المريض ، ولا سيّما في الولايات العربيّة ، لذلك بدأت مرحلة من الاتفاقات بين هذه الدول ، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ، ففي آذار ١٩١٥ ، بدأت المُفاوضات السريّة بين بريطانيا وفرنسا ، ومثّل كُل من مارك سايكس الجانب البريطاني ، والمسيو جورج بيكو الجانب الفرنسي ، وتمّ التوقيع رسمياً على الاتفاقيّة في ١٦ آيار ١٩١٦ (١٥) .

قسّمت الاتفاقيّة البلاد العربيّة على أربعة أقسام وهي الآتية :

١. **المنطقة الزرقاء** : وتضم الساحل السوري من رأس الناقورة إلى قلب الأناضول ، ولوّنت باللّون الأزرق على الخريطة المُرفقة بالاتفاق ، وتُعطى هذهِ المنطقة إلى فرنسا ، ولها أنْ تُقيم فيها شكل الحُكم الّذي ترغب فيه .

٢. **المنطقة الحمراء** : وتشمل ولايتين البصرة وبغداد ، ولوّنت باللّون الأحمر ، وتُرك لبريطانيا شكل الحُكم الّذي تشاء .

٣. **المنطقة السمراء** : وتشمل فلسطين ، وجعلت مِنها منطقة دوليّة ، يُعيّن شكلها دول الوفاق الودّي .

٤. **المنطقة الداخلية** : تُركت بلا لون ، وقُسّمت إلى منطقتين ؛ (أ) و (ب) ، على أنْ تؤلّف مِنها دولة عربيّة مُستقِلّة أو اتّحاد دول عربيّة على أنْ يكون لفرنسا في منطقة (أ) داخل سوريا الشماليّة والموصل ، والمنطقة (ب) بقيّة العراق وشرق الأُردُن ، وأصبح لها حق الأولويّة في المشاريع الاقتصاديّة والقروض وحق الانفراد في تقديم المُستشارين والموظّفين الأجانب (١٦) ، وتدخل الإسكندرونة في منطقة النفوذ الفرنسي ، على أنْ يكون ميناؤها حُر لتجارة بريطانيا ، وفي الوقت ذاته تدخل حيفا في منطقة النفوذ البريطاني على أنْ يكون ميناؤها حُرّاً للتجارة الفرنسيّة ، ويتعهّد الطّرفان بأنْ لا يتنازل كُل طرف عن حقوقهِ في المنطقة المُخصّصة له ، ولا يُعطيها إلى أيّة دولة أُخرى سِوى البُلدان العربيّة .

عُموماً ، فأنّ اتفاقيّة سايكس – بيكو ، هي خُدعة ومؤامرة استعماريّة لتقسيم المنطقة العربيّة ، وهي نقض للمواثيق والعُهود الدوليّة ، ولا سيّما تِلكَ الوعود الّتي قطعتها بريطانيا للشريف حسين ، ولم تُعلن هذهِ الاتفاقيّة إلّا بعد (١٨) شهر من توقيعها ، وقد تمّ فضح بنود هذهِ الاتفاقيّة وأهدافها بعد قيام ثورة أكتوبر / تشرين الأول في روسيا عام ١٩١٧ (١٧) .